# العلاقات السياسية بين الخليفة المستنصر بالله ومظفر الدين كوكبري

## (٦٢٣هـ/١٢٢٦-٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

حسين حديس جاسم(*)

المقدمة:

يعد الخليفة المستنصر بالله واحدا من بين اكثر الخلفاء العباسيين من العصر العباسي الأخير الذين اهتموا بجمع كلمة المسلمين وتوحيدهم، لان الخلافة الإسلامية أصبحت تتألف من عدد من دويلات الأطراف المفككة والمتنازعة مع بعضها لاسباب توسعية بين القوية والضعيفة منها، وليس للخليفة العباسي عليها من سلطان سوى من الناحية الاسمية والدينية، على الرغم من أن الخليفة المستنصر بالله جاء في فترة ( انتعاش الخلافة ) العباسية وتخلصها من النفوذ السلجوقي لتلفظ أنفاسها، إلا أنها كانت مهددة أيضا بخطر خارجي متعاظم قدم إليها من جهة الشرق هو الخطر المغولي الذي صار يهدد كل العالم الإسلامي، فبدأ يدق أبواب الخلافة العباسية بشكل غزوات غرضها جس نبض قوة الخلافة ومدى قدرتها في المواجهة مستقبلا. وقد شارك الخليفة المستنصر بالله هذه الهموم والأخطار أمير أربل ( مظفر الدين كوكبري ) ٥٨٦هـ /

(*) مدرس مساعد كلية التربية/ جامعة تكريت

١١٩٠م – ٦٣٠هـ / ١٢٣٠م الذي تعرض هو الآخر لهذه الهجمات منذ سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م ). فكانت أربل المحك الأول وخط المواجهة لغزوات المغول المتكررة. فضلا عن تعرض أمارته لاطماع الغير، فقد طمع فيها ( بدر الدين لؤلؤ ) صاحب الموصل وطمع فيها ( الاشرف موسى ) صاحب دمشق، كذلك (خوارزم شاه ) صاحب الدولة الخوارزمية قبل سقوطها على يد المغول لان أمارة أربل ولدت في عصر أصدق وصف له هو ( عصر الغلبة ) لان كل صاحب وحدة سياسية كبيرة أو صغيرة يجد في نفسه المقدرة الحربية من التوسع على حساب جيرانه لا يتوانى في شن الحرب على المستضعفين منهم، فكانت المنطقة في صراع وتنازع مستمر، فاشترك المستنصر بالله ومظفر الدين كوكبري بنفس الخطر وعدم الاطمئنان للوضع السياسي الدولي المحيط بهما، مما دفعني إلى دراسة جذور هذه العلاقات السياسية بين الخليفة المستنصر بالله ومظفر الدين كوكبري في ظل هذه الظروف السياسية والأخطار المحلية والخارجية، ومدى استمرار هذه العلاقات ونتائجها لكلا الطرفين.

الباحث

## تمهيد عن العلاقة بين الخليفة الناصر لدين الله ومظفر الدين كوكبري [1]:

كان مظفر الدين تابعا لصلاح الدين الأيوبي وخاضعا له ولم يكن قادرا أن يكون حر التصرف بأمارته حتى توفي صلاح الدين سنة ( ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م ) فاصبح حرا مستقلا وبإمكانه إقامة علاقات سياسية مع من يشاء من الدول، ومنها الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله، على الرغم من أن هذه العلاقات الإيجابية مع بغداد كانت متأخرة نسبيا ولم تتجاوز الشكليات في بداية الأمر، حيث وضع مظفر الدين اسم الخليفة الناصر على نقوده دليلا على الاعتراف بتبعيته للخليفة، وقد استمر هذا الوضع بينهما حتى جاءت اللحظة المناسبة حين فكر مظفر الدين بضرورة إقامة علاقات جديدة ووطيدة مع مركز الخلافة العباسية[2]. التي كانت هي الأخرى بحاجة إلى مثل هذه العلاقات في هذه الفترة من حياتها. ومن مظاهر هذه العلاقة بين الجانبين:-

١. إن سنة (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ) كانت بداية التقارب بين بغداد واربل وذلك نتيجة لجهود الملك العادل ( أخو ربيعة خاتون زوجة مظفر الدين ) بمهمة

(١) مظفر الدين كوكبري: هو أبو سعيد ابن الأمير زين الدين علي بن بكتكين بن محمد، ولد بقلعة الموصل سنة ( ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ) وتربى في أربل عند اتابكة مجاهد الدين قايماز، وصف بأخلاق عالية وشجاعة فائقة، وظل في خدمة صلاح الدين الأيوبي وحارب معه حتى ولاه امارة اربل سنة ( ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ) بعد وفاة أخيه زين وظل أميرا فيها حتى توفي سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م ) ( ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، دار صادر- دار بيروت/ ١٩٦٦م، ص٩٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، ص٢٧٦، وينظر: حسين، محسن محمد: اربل في العهد الاتابكي، (بغداد/ ١٩٧٦ )، ص١٨٧ وما بعدها، طليمات، عبدالقادر احمد: مظفر الدين كوكبوري أمير اربل، (مصر/ ١٩٦٣ )، ص٩ وما بعدها.

(٢) حسين، محسن محمد: اربل في العهد الاتابكي، ص١٥٢.

توسط لدى الخليفة الناصر حيث أوفد بدوره رسولا يحمل رسالة من طرفه إلى بغداد وبصحبته أحد أبناء أخي مظفر الدين وقد استقبل الوفد بحفاوة وتقدير لدى وصوله مركز الخلافة، ودخل ممثل صاحب أربل وقبل عتبة ( باب النوبي )[٣] وقدم اعتذاره لدى الديوان الخليفي، اما رسول العادل فتبته سلم رسالة إلى الخليفة طالبا العفو عن مظفر الدين لما يخص الفترة الماضية، وقد استجاب الخليفة لطلب الرسولين[٤] بتحسين الأجواء وإزالة ما يعكر صفو العلاقة التي تحسنت بعد هذه المبادرة.

٢. بعد أن أصبحت العلاقة ودية بينهما صار مظفر الدين يعمل تحت إمرة الخليفة وتوجيهاته، فبعد سنوات من تحسين العلاقة بينهما أي سنة ( ٦١٢هـ/ ١٢١٥م ) كلفه الخليفة الناصر لدين الله للقضاء على التمرد الذي قام به المملوك ( منكلي ) ضد سيده ( اوربك بن البهلوان ) صاحب أذربيجان وضد الخليفة، واصبح خطرا يقلق أمن المنطقة ويهدد اتباع الخليفة[٥]. مما دعا الخليفة إلى إيجاد وسيلة للقضاء عليه، فحشد قواته وراسل صاحب قلاع الإسماعيلية (الحسن بن الصباح )[٦] وصاحب حلب الملك الظاهر ( غازي ) وصاحب مصر ( العادل الأيوبي ) وطلب منهم تقديم المساعدة إليه للقضاء

(٣) باب النوبي: وهي العتبة التي كان الرسل والملوك والوفود يقبلونها إذا وصلوا بغداد ( جواد، مصطفى واحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ( بغداد/ ١٩٥٨م ) ص١٥٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، حـ١٣، مطبعة السعادة ( القاهرة/ ١٩٣٢م )، ص٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٢/ ٢٩٦، ٣٠١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦، القاهرة/ ١٩٧٢م )ص٢١٢.

(٦) تحسنت العلاقة بين الخلافة العباسية والإسماعيلية في عهده واصبح من أصدقاء الخليفة الناصر لدين الله (ابن الأثير: الكامل ١٢/ ٢٩٨ ) دائرة المعارف الإسلامية ط ١٩٣٣م.
مادة: الإسماعيلية ، ص١٨٩.

على المتمرد ( منكلي )، فاستجابوا لطلبه بهذا الشأن، ثم بعث الخليفة الناصر الى مظفر الدين كوكبري يأمره بالحضور مع جنده وجعله مقدم العساكر جميعا(7) وسار نحو همدان وجرت بينه وبين ( منكلي ) تصادمات عديدة تمكن مظفر الدين من هزيمته نهاية الأمر(8).

3. وفي سنة ( 617هـ/ 1220م ) كان هناك نوع من التعاون العسكري بين الخليفة ومظفر الدين عندما قام المغول بمهاجمة العراق ووصلوا إلى أربل فوجه الخليفة الناصر رسالة إلى مظفر الدين يبلغه فيها بأنه سيرسل له قوات كبيرة لقتال المغول وبحدود ( عشرة آلاف ) جندي ويعينه قائدا لهذا الجيش، وانتظر مظفر الدين وصول تلك القوات إلا انه تبين انه لم يرسل له سوى (ثمانمائة ) فارس(9) كدفعة أولى من جيش كبير ينوي الخليفة تجمعه، فأحجم مظفر الدين عن التحرش بالمغول خوفا على جنوده من الإبادة وعدم تمكنه من مواجهتهم، ويحكي مظفر الدين خبره مع الخليفة فيقول: " لما ارسل الى الخليفة في مقاتلة التتار، قلت له:إن العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما اخذ من البلاء فامرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي(10) فاقمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي

---

(7) ابن الأثير: الكامل 306/12

(8) ابن تغري بردى: النجوم 213/6

(9) الذهبي: مختصر تاريخ الإسلام، مخطوطة على المايكروفلم، محفوظة في مكتبة الدراسات العليا جامعة بغداد، كلية الآداب برقم(1803 )، ورقة 351، اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، (الركن/1339م)، ص37.

(10) طواشي: مماليك أي خدام الخليفة المقربون(القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا جـ3، ص477)

وبالمسلمين"[١١]. إن تجميع هذه القوات على الرغم من صغرها فإنها أفزعت المغول و أرغمتهم على الانسحاب فتقهقروا و أقاموا بعيدا". كما إن هذا التعاون ينم عن العلاقة الطيبة بين الخليفة الناصر ومظفر الدين كوكبري رغم تحريض بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل الخليفة ضده[١٢].

## طبيعة العلاقات السياسية بين المستنصر بالله[١٣] وكوكبري:

كان الخليفة المستنصر بالله يريد جمع كلمة المسلمين و إقامة وحدة إسلامية تضم كل قوى و امارات الأطراف التابعة للخلافة، نظرا لكونه جاء في فترة تفاقم فيها الخطر المغولي لذي بدأ يهدد أمن الخلافة وأطرافها الشمالية و الشرقية، فاراد من ذلك تحسين علاقته مع كل جيرانه والذين من ضمنهم امارة اربل في عهد أميرها مظفر الدين كوكبري الذي بدا هو الآخر يفكر بمثل هذه العلاقة وينتابه نفس الشعور بكيفية التصدي لهذه الأخطار التي تهدد مستقبل امارته مما زاد في حاجته إلى الخلافة وتوطيد علاقته معها.

ومن ابرز مظاهر هذا لتعاون والعلاقات السياسية بين الجانبين هي:

---

(١١) ابن الأثير: الكامل ٣٧٩/١٢ (يبدو أن الخليفة الناصر لم يكن لديه جيش قوي دائم التجهيز)

(١٢) ابن الأثير: الكامل ٤٦٢/١٢

(١٣) المستنصر بالله: هو لخليفة لسادس والثلاثون في سلسلة الخلفاء لعباسيين، بويع بالخلافة سنة(٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) ولستمرت خلافته حتى وفاته سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) (ينظر: الحموي، أبو الفضايل: التاريخ المنصوري (نسخة غير محققة مصورة) نشرها بطرس عزيا زينوخ، موسكو/١٩٦٣م، ورقة ٢٢-٢٦، ابن الكازروني: مختصر لتاريخ، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد/ ١٨٧ص٢٥٨، الاربلي: خلاصة الذهب المسبوك تصحيح مكي لسيد جاسم، بغداد، ص٢٥٨، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص٢٦٧)

١. إن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ دأب دوما على تشويه سمعة مظفر الدين كوكبري لدى الخليفة المستنصر بالله واتهامه له بأنه خارج عن طاعة الخلافة ومتواطئ مع أعدائها من الخوارزميين والخراسانيين[١٤]، مما عكر صفو العلاقة مع الخلافة بداية الأمر لولا أن الخليفة المستنصر غير موقفه تجاهه بعد أن تأكد من براءة مظفر الدين من هذه التهمة الموجهة له من قبل بدر الدين لؤلؤ، مما عزز الثقة وإزالة الشكوك بين بغداد واربل وحسن الأجواء بينهما.

٢. ومما زاد في الثقة وتحسن العلاقة بين الجانبين حماية الخليفة المستنصر بالله لامارة اربل من ( جلال الدين منكبرتي ) سلطان الدولة الخوارزمية، ومحاولته التعرض لها وضمها إليه، إلا أن الخليفة عقد معه اتفاقا، ابرم سنة ( ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ) يقضي بعدم تعرض جلال الدين لامارات الأطراف التابعة للخلافة التي بضمنها امارة اربل[١٥]، مما جعل الخلافة الملاذ الآمن لمظفر الدين لحمايته من هذا التهديد.

٣. ومن الدلائل الأخرى للعلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية والاحتماء بها من الأعداء الطامعين، ومنهم الملك ( الاشرف موسى ) صاحب دمشق الذي توجه إلى سنجار سنة ( ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م ) يريد اخذ اربل، فاستنجد مظفر الدين كوكبري بالخليفة المستنصر بالله لمنع الاشرف من ذلك، وبالفعل راسله الخليفة ونهاه فامتثل للأمر وامتنع عن ضم اربل[١٦].

---

(١٤) ابن الأثير (ضياء الدين): رسائل ابن الأثير، تحقيق، أنيس مقدسي (بيروت/ ١٩٥٩) ص٧١

(١٥) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق، حافظ احمد حمدي (القاهرة/ ١٩٥٣)، ص٣٠٤.

(١٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان مج ٨، ق٢، حيدر اباد، (الدكن،١٩٥٢)، ص٦٨٠، الغساني: المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، (بغداد/ ١٩٧٥)، جـ٢، ص٤٨٢.

٤. ومما زاد من حاجته إلى الخلافة أيضا ذكر ابن الأثير[١٧] انه ظهر في سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) الأمير (شمس الدين سوبُح) زعيم قبيلة (قشيالو) التركمانية الذي اخذ يجمع أنصارا له ويوجههم للقيام بأعمال نهب وتخريب واخلال بأمن المنطقة الواقعة بين اربل وهمذان، فضلا عن تهديده لامن اربل نفسها فتصدى لهم مظفر الدين محاولا سحقه والقضاء عليه إلا انه فشل مما زاد من قلق مظفر الدين على أمن ومستقبل امارته منه، مما دفعه إلى ضرورة توثيق علاقته بالخلافة العباسية لمساندته بالوقوف والتصدي لمثل هذه الأخطار.

٥. ومن مظاهر هذه العلاقة بين بغداد واربل تعاونهما في الدفاع ضد عدوها المشترك الذي اخذ يهدد وجود كلا الطرفين وصار يشن غارات على أطراف الخلافة واربل معا، مما يوجب التصدي له بكل الوسائل، ففي سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وصل المغول إلى اربل بعد أن قتلوا الكثير من الأكراد والتركمان ودخلوها مما اضطر صاحبها مظفر الدين كوكبري أن يطلب المساعدة من امارة الموصل والخلافة العباسية لكن المغول عادوا إلى أذربيجان بشكل غارة سريعة ولم يلاحقهم كوكبري[١٨] مما يدل على انه لا يستغني عن الاستنجاد بالخلافة العباسية على الرغم من إمكانياتها العسكرية المتواضعة في هذه الفترة.

ومن المسائل المهمة بين الجانبين مسألة مستقبل امارة اربل من بعد كوكبري الذي كانت تشغله هذه القضية قبل وفاته بسنوات لانه لم ينجب ولدا ووريثا لدولته ولم يجد من يصلح لوضع امارته وشعبه في أيدي أمينة سوى الخليفة المستنصر

---

(١٧) الكامل: ١٢/ ٤٩٣، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج-٤، تحقيق، محمد حسنين ربيع ط١٩٧٢، ص٣٠٦

(١٨) الكامل ١٢/ ٥٠١، ابن واصل: المفرج ٣٢٨/٤

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ق١، (القاهرة/ ١٩٥٦)، ص٢٤١.

بالله[١٩]. ويبدو انه جرت بينه وبين الخليفة مفاوضات بهذا الشأن منذ سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) وقبل زيارة مظفر الدين إلى بغداد في المحرم من سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م). فقد ذكر ابن الفوطي إن الخليفة أرسل إلى مظفر الدين رسولين هما (محي الدين يوسف بن الجوزي وسعد الدين حسين بن الحاجب علي) دون أن يذكر سبب إرسالهما، ثم يذكر إن مظفر الدين سار معهما إلى بغداد في المحرم سنة (٦٢٨هـ/ ١٣٣٠م)[٢٠]، وهي الزيادة المهمة التي توجت العلاقات السياسية ووطدتها بين بغداد واربل، ومن المرجح أن مهمة الرسولين كانت تفاوضية وتتعلق بوضع اربل بعد وفاة مظفر الدين ووراثتها للمستنصر بالله. ولما تمت قواعد الاتفاق بينهما سار مظفر الدين بنفسه صحبة الرسولين حاملا مفاتيح اربل إلى بغداد لابلاغ الخليفة ما بنيته من تسليم امارة اربل وقلاعها بعد وفاته للخليفة[٢١].

أما عن مراسيم هذه الزيارة يضيف ابن الفوطي[٢٢] انه عند اقتراب موكب مظفر الدين من بغداد استقبل على بعد فرسخ منها خارج أسوارها وكان من بين المستقبلين له نائب الوزارة (فخر الدين احمد مؤيد الدين القمي) وكذلك الأمراء والقضاة والمدرسين وجميع أرباب المناصب في البلاط الخليفي، و لما دخل الموكب بغداد ووصلوا (باب النوبي) ترجل مظفر الدين وقبل عتبتها، ثم توجهوا جميعا نحو دار الخلافة، حيث أمر الخليفة المستنصر بالله أن ينزل ضيفه في

---

(١٩) طليمات: مظفر الدين ص٢٣٨/٢٣٩.

(٢٠) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح ، مصطفى جواد، (بغداد/ ١٩٥٥)، ص١٩.

(٢١) سبط ابن الجوزي ٨ق٢/٦٨١

(٢٢) ابن الفوطي: الحوادث، ص٢٠-٢٣

( قصر التاج ) الذي يعتبر أحد أشهر قصور دار الخلافة ببغداد، وبعد أن استراح ضيفه دعاه الخليفة إلى مجلسه ، فحضر مع أمرائه وقبلوا الأرض جميعا، وبعد أن رفعت الستارة سلم مظفر الدين على الخليفة وقرأ على مسامع الخليفة الآية ( اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي )[٢٣] ، وبنفس الوقت رد الخليفة عليه السلام وقرأ الآية: (انك اليوم لدينا مكين أمين )[٢٤]، ويذكر اليونيني[٢٥]، إن مظفر الدين صحب معه كاتب انشاؤه وشاعر بلاطه ( مجد الدين سعد بن إبراهيم بن حسن النشابي ) الذي دخل معه إلى الخليفة وانشد بين يديه قصيدة مطلعها:

جلالة هيبة هذا المقام          تحيير عالم علم الكلام
كأن المناجي به قائماً          يناجي النبي عليه السلام

وبعد انتهاء هذه المراسيم قدم الخليفة إلى صاحب اربل هدايا كثيرة تدل على اهتمامه به ومودته له وحسن علاقته به، ومن جملتها سيفين وفرس بسرج ذهب وكنبوش[٢٦]، ومشدة[٢٧]، وسير وراءه سنجقان[٢٨] مذهبان[٢٩]، ثم خرج مظفر الدين من الباب القائمي المعروف ( بباب التمر ) بالمشرعة[٣٠]، وقد قام مظفر الدين بزيارة العتبات الدينية في بغداد، و أقيمت له ولحاشيته الولائم الوافرة أينما

---

(٢٣) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية (٣)

(٢٤) القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية ( ٥٤)

(٢٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، حيدر اباد، الدكن(   / ١٩٥٤م) مص١١٧

(٢٦) الكنبوش: البرذعة

(٢٧) المشدة : مما يزين به الفرس في عنقها ( الحوادث ص٢١ )

(٢٨) السنجق اللواء ( القلقشندي ) صبح ٥/ ٤٥٨

(٢٩) الحوادث، ص٢١

(٣٠) باب التمر: وباب سوق التمر (جواد مصطفى وسوسة، احمد: دليل خارطة، بغداد، ص١٥٨ )

حلوا[٣١]. ثم رتب له بعد ذلك لقاء آخر بالخليفة قبل الأرض في حضرته وتلا الآية: ( يا ليت قومي يعلمون مما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)[٣٢]، وتباحث مع الخليفة بشان الأمور المهمة بين بغداد واربل، ولما أنهيت المقابلة توجه إلى حجرة الخلع، قدمت له الهدايا مرة ثانية ثم عاد مظفر الدين إلى اربل بعد أيام منهيا زيارته لبغداد التي استغرقت عشرين يوما[٣٣]، بعد أن تشرف بمقابلة الخليفة مرتين، وهي فرصة عظيمة تمناها الكثير من حساد مظفر الدين[٣٤] وقد رافقه في عودته رسولا الخليفة محي الدين بن الجوزي، وسعد الدين حسن بن الحاجب علي ومكثا في ضيافته فترة ثم عادا إلى بغداد و أعلنا للخليفة أن مظفر الدين حلف أمراءه واعيان دولته على طاعة الخليفة وتسليم اربل إليه بعد وفاته[٣٥]. وقد تمخض عن هذه الزيارة عدة إجراءات سياسية وعسكرية هامة منها:

أ- حصل نوع من الاتفاق بين الخليفة ومظفر الدين على توريث الخليفة لامارة

---

(٣١) الحوادث، ص٢٢

(٣٢) القران الكريم، ( سورة يس ) الآية ( ٢٧ )

(٣٣) الحوادث، ص٢٢

(٣٤) يذكر في سنة ( ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥ وصل الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي صاحب الكرك إلى بغداد فخلع عليه الخليفة و أكرمه إلا انه منعه في بداية الأمر من الاجتماع به فنظم قصيدة عتابية رائعة للخليفة المستنصر بالله على تفضيله مظفر الدين كوبري ومقابلته، جاءني مطلعها:

ويأتيك غيري من بلاد قريبة    له من الامن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم الق مثله    ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه

(رشيد، ناظم: داود بني عيسى الأيوبي حياته و أدبه، أطروحة دكتوراه غير منشورة من كلية الآداب جامعة بغداد / ١٩٨١، ص٥٤ )

(٣٥) الحوادث، ص٢٣

اربل وقد حلف مظفر الدين أمراءه واعيان بلده على طاعة الخليفة وتسليم اربل له بعد وفاته[٣٦]، وتم ذلك بحضور رسولي الخليفة المذكورين اللذين كانا في ضيافته وحضرا هذا الأجراء مما يدل على إن هذا الاتفاق قد تم في هذه الزيارة ويؤكد هذا سبط ابن الجوزي[٣٧] وقال: بان مظفر الدين عندما قام بزيارة بغداد كان معه مفاتيح اربل وقلاعها وذلك لتسليمها إلى الخليفة إعلانا منه بان المدينة والقلاع التابعة لها أصبحت للخليفة بعد وفاته.

ب- وعلى اثر هذه الزيارة أيضا فان مظفر الدين صار في ولائه تابعا للخلافة العباسية واقتصر في خطبته على الخليفة المستنصر بالله[٣٨]، مما يدل على تبعيته وولائه الكامل للخليفة.

جـ- إن هذه الزيارة وطدت العلاقة بين بغداد واربل وزادت من روح التعاون العسكري بينهما ضد عدوهم المشترك المغول، وظل مظفر الدين على الرغم من شيخوخته أحد القادة الذين يعتمد عليهم الخليفة في المهمات الصعبة اكثر من غيره، ويتمثل ذلك في سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) عندما وصل المغول إلى منطقة شهرزور باتجاه اربل فجهز المستنصر الجيوش و أمر عليهم (جمال الدين قشتمر) بعد أن استنجد بصاحب اربل الذي توجه بجيشه للانضمام إلى جيش الخلافة لمواجهة المغول الذين انسحبوا بدون مواجهة[٣٩]، إلا أن الجيشين واصلا السير باتجاه المغول، واجتمع الجيشان الخليفي والاربلي عند قلعة الكرخيني

(٣٦) الحوادث، ص٢٣

(٣٧) سبط ابن الجوزي: المرآة ٨/ ٦٨٠ - ٦٨١

(٣٨) المرآة ٨/ ٦٨١

(٣٩) الحوادث، ص٢٧، الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، تحقيق، فهيم محمد شلتوت ومحمد [illegible] إبراهيم ١٩٧٤، ص٦٣٥، ابن كثير: البداية ١٣/ ١٣٥

(كركوك) و خيموا عندها بانتظار المغول، وقد ظلوا ينتظرون طويلا حتى سئموا الانتظار دون عودة المغول إلى المكان أو لتصادم معهم كما أن طول الانتظار كان سببا في حدوث تصادمات بين جند الخليفة وجند اربل أسفر عنه وقوع بعض القتلى والجرحى بين الجانبين وكادت النتيجة تتحول إلى مأساة لولا تدخل ( جمال الدين قشتمر ) المتسم بالحكمة والتعقل فانتشل الموقف في اللحظة الأخيرة وهدأ الأمور دون تحويلها إلى حرب تقع فيها المزيد من الخسائر حيث دخل إلى خيمة مظفر الدين ووجده متهيئا ويحث جنده للقتال ضد جند الخليفة فاخذ يهدئ من غضبه وثورته ويعاتبه على موقفه المتسرع مع نوع من التوبيخ والملاطفة حتى خجله وقبح خطورة الموقف والوضع المتفجر حتى أقنعه وعاد إلى صوابه و أنهى بذلك هذه الفتنة ووضع حدا لتصاعد الموقف[40]، ثم واصلت الحملة سيرها لمتابعة المغول باتجاه شهرزور التي كان يهددها المغول حتى وصلوا عند ( موغان )[41]، فزادت متاعبهم وصارت حاجتهم ماسة إلى الماء إلى الحد الذي مات فيه بعض الجنود من العطش فضلا عن مرض ألم بمظفر الدين[42]، بحيث لم يتحمل الاستمرار في مصاحبة الحملة وربما يعود ذلك إلى كبر سنه وشيخوخته لانه قد بلغ الثمانين من عمره، فاعلن رغبته في العودة إلى اربل وعدم قدرته على مواصلة سير الحملة فطلب من (جمال الدين قشتمر) أن يبعث معه ( شرف الدين علي والأمير سعد الدين حسن بن الحاجب علي) ويرافقانه في عودته إلى اربل

---

(٤٠) الحوادث، ص٢٨

(٤١) موغان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة يسكنها التركمان في بلاد اذربيجان ( ياقوت ) معجم البلدان جـ ٥، ص٢٢٥

(٤٢) يذكر ابن الفوطي في الحوادث صفحة ٢٩، إن مظفر الدين اظهر المرض الشديد وزاره جمال الدين قشتمر فوجده ملقى على ظهره.

ليسلم إليهما قلعة (خفيتان)[٤٣] ثم يتسلما بلدة اربل بعد موته، فوافق ( جمال الدين ) على طلبه، وعاد كوكبري ومعه الرسولان المذكوران، كما إن ( جمال الدين قشتمر) عاد بجيشه هو الآخر إلى (الكرخيني)[٤٤] ثانية، وربما يكون سبب عودته ليكون قريبا من اربل للانتظار في حالة موت ( مظفر الدين كوكبري ) وتسلم امارته. إلا أن الرسولين المذكورين عادا إلى ( الكرخيني ) أيضا بعد أن امضيا فترة قصيرة في اربل وابلغا ( جمال الدين قشتمر ) أن ( مظفر الدين ) ليس مريضا وفي أتم صحة كما اتهماه بأنه متحايل ويدعي المرض سببا للعودة، وإذا كان كلام الرسولين صحيحا حول أسباب عودة (مظفر الدين ) وانسحابه من ميدان القتال إلى مدينة اربل بهذه الطريقة فان ذلك ينم عن تراجع كوكبري وعدم مصداقيته للخليفة في ضم اربل، ولكن في ضوء المعلومات المتوافرة لدينا عن شخصية ( مظفر الدين ) وبما فيه من صفات الصدق والتدين والشجاعة تثبت عكس ذلك وتضعف لدينا احتمال تحايله وخيانته للخليفة، لكن ربما كان سبب عودة ( مظفر الدين ) وانسحابه من ميدان القتال أن يكون مريضا فعلا لانه كبير السن وتجاوز عمره الثمانين، ولن تتحمل قابليته مثل هذه الأعباء من التعب والعطش، أما عن حالة شفائه من مرضه فمن الطبيعي أن يستعيد صحته بعد أن توفرت له أسباب الراحة والعلاج في امارته اربل، ويمكننا تأييد صحة مرضه وعدم مقاومته للتعب هو انه توفي في السنة اللاحقة ( ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)[٤٥] مما يخفف عنه تهمة التحايل، أما ما يخص عدم تسليمه اربل للرسولين، فان ذلك يعود إلى الاتفاق

---

(٤٣) خفيتان: قلعتان عظيمتان من أعمال اربل ( ياقوت: معجم ٢/ ٣٨٠ )

(٤٤) الحوادث، ص٢٩

(٤٥) الحوادث، ٤٤

بتسليم اربل بعد وفاته، ولكن يبدو أن مظفر الدين عندما شعر بتحسن صحته آثر تأجيل الموضوع إلى فترة لاحقة، ولما كان الرسولين على عجلة من أمرهما ويريدان تسليم الأمارة حالا أو في فترة قليلة مما دعاه إلى تسريحهما (٤٦)، وعودتهما إلى الكرخيني وهما ساخطين على مظفر الدين.

ولكن مهما يكن من أمر فان اربل ضمت إلى دولة الخليفة بعد وفاة مظفر الدين (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م ) ولكن ليس بطريقة سلمية وحسب الاتفاق وانما كان ضمها بالقوة مع حصول إراقة دماء، لانه كان في قلعة اربل خادمان لمظفر الدين، ولما اشتد به المرض أرسلا لكل من الخليفة المستنصر وعماد الدين زنكي ( زوج ابنة مظفر الدين)، والملك الصالح نجم الدين أيوب واخبراه بقرب وفاة مظفر الدين وانذرا كل منهم بأنه ( من سبق إلينا كانت منتنا عليه )، إلا انهما كانا مع نجم الدين أيوب وأخذا يحثانه على الإسراع بتسلمها، فكان جيش الخليفة المستنصر بالله أسرع الاثنين في الاستيلاء عليها، إلا أن الخادمين رفضا تسليمها إلى جيش الخليفة و أوصدا أبواب المدينة لمنع دخول نائب الخليفة إليها، فضرب الجيش الحصار عليها ودار القتال بينه وبين حامية القلعة انتهى بهزيمة الحامية ودخولها في مملكة الخليفة نهاية الأمر (٤٧).

ويمكننا أن نستنتج من كل ما تقدم انه كانت هناك علاقات سياسية واضحة

---

(٤٦) الحوادث، ص٣٠

(٤٧) الحوادث، ص٤٤ _ ٤٨، سبط ابن الجوزي: المرآة ٨/ ٦٨٣. ( ينفرد أبو الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر، جـ٣، طبعة مصر صفحة، ١٥٣ إن اربل ضمت إلى دولة الخليفة سلميا لان مظفر الدين ليس له ولد فاوصى بضم اربل وقلاعها إلى دولة الخليفة المستنصر بالله الذي تسلمها بعد موت مظفر الدين.

وينظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ( القاهرة/ ١٩٦٧م ) جـ٤، ص٨، طليمات: مظفر الدين كوكبري ص٢٣٩.

بين الخليفة المستنصر بالله مظفر الدين كوكبري وهي استمرار تلك العلاقات منذ زمن الخليفة الناصر لدين الله، على الرغم مما أصابها من بعض حالات الفتور أحيانا، وهي حالة طبيعية في العلاقات السياسية بين الدول التي تتسم دائما بالتغيير وعدم الثبات، كما إن هذه العلاقات كانت طيبة وودية وفيها نوع من التعاون السياسي والعسكري، رغم تحريض أمير الموصل (بدر الدين لؤلؤ) للخليفة ضد مظفر الدين ومحاولته تعكير صفو علاقته مع الخلافة العباسية.

وذلك لأطماعه الخاصة بإمارة اربل، كما أن هذه العلاقات توجت بزيارة مظفر الدين لبغداد بداية سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) نتج عنها عدة إجراءات سياسية وعسكرية بين الجانبين ومن بين أهمها الاتفاق على ضم إمارة اربل إلى دولة الخليفة العباسي في بغداد، بعد وفاة مظفر الدين كوكبري، الذي حلف أمراءه وبحضور رسولي الخليفة على ذلك، إلا أن النتيجة النهائية كانت ضم اربل بالقوة وليس بطريقة سلمية ضمن الاتفاق المذكور، ولم تذكر المصادر بان مظفر الدين قطع علاقته بالخلافة العباسية قبل وفاته أو انه تخلى عن تعهده هذا، مما يجعلنا لا نلقي كل اللوم على مظفر الدين بعدم ضم اربل سلميا لأنه توفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢) وترك اتفاقا يوصي بتسلم الإمارة إلى دولة الخليفة بعد وفاته، وكان الأمر متروكا لمن كان بعده في إدارة اربل لتنفيذ الاتفاق أو عدم تنفيذه، فكانت المحصلة النهائية عدم التزام الخادمان بالاتفاق وتحملهما مسؤولية إراقة الدماء في ضم اربل إلى دولة الخليفة المستنصر بالله بالقوة.